رسائل الأصدقاء

من بركات الأدب

. . . عُدتُ أمس صديقاً أنهكه رسُّ المرض حتى أذواه . فما ترى إذا رأيتَ ، سوى أعظُم ناتئة تهم أن تخرج ، ولا تسمع إذا سمعتَ غير أنين خافت موجع كأنه ودع الجسم للروح . فتلقّاني بابتسامة كأنها الزهرة الذابلة ، وبدمعة كأنها اللؤلؤة اللّموع ، وأدناني من سريره وبكى ، فواسيتُه بالأحاديث ، وخففت عنه بالأهازيل ، فلم يسكن اضطرابُه ، ولا خفت آلامُه :

ثم رأيته يتململ في فراشه حيران ، ويشير إلى صدره أسوان ، ويقول : « إني لأحسّ ههنا سكيناً تمزّق وتخرّق . أفلا ترقيني ؟ ... »

فقلت لنفسي : « هذا أول الهذيان ثم يتبعه الجنون ! »

وقلت له : « ومتى عهدتني ، عافاك الله ، صاحب رقية ، أرقي بها الناس لتسألني ما سألت ، وتسترقيني ؟ »

قال : « سألتُك بالله وبودّك بي أن ترقيني . لقد كان أبوك شيخ المقرئين ، وكان رجلاً مباركاً كأنه مَلَك كريم ؛ وجدُّك كان شيخاً صالحاً ، لم تشغله تجارته الواسعة عن التقوى . ثم إن الولد سر جدّه وأبيه ! »

وارتبكتُ ، ورأيته يمسك بيدي فيذرف دمعة ، فتساقطت عليها فتلذعني ، ثم يضعها على صدره ويغمض عينيه

وتكلّفتُ الجد والوقار ، وهَمَمْتُ أن أقرأ له ، ولكن مرّت على خاطري خطرة بارعة ، فوجدتُني أردّد على مهل قطعة لصديق « الزيات » عن الربيع ، كنتُ حفظت فِقراً منها :

« ... هذا ربيعكما يا فتاتي الفاتنة ، ويا طفلتي الجميلة : صفاؤه من سلام النفس يفيض بشراً في العين وطلاقة في الوجه ؛ ورواء من ألق الشباب يشعّ نوراً في السماء وسروراً في الأرض ؛ ورخاؤه من نعيم الطبيعة ينشر عطوراً في الجو وزهوراً في الروض ؛ وانتشاؤه من رحيق العيش يشيع لذة في الحس وبهجة في القلب ؛ وهدهدةٌ على أرجوحة الحب تذهب مع الأمل الباسم وترجع مع الرضى السعيد ؛ واتحاد الجمال البشري بالجمال الإلهي الماثل في وشاء الحقول وأغواف الخمائل وأعطار النسيم وألحان الطير وأنفاس الأحبة . فأين بالله ربّكما أجد الفرق بينكما وبين مَلَكين يعتنقان في نشوة الخلد ويأتلقان في وَضاءة الفردوس ؟ أفي النظرة الساهمة ، أم في البسمة الحالمة ، أم في الفتنة الناعمة ، أم في الحنوّ الخليق بالأمومة ، أم في الصبا الذي يضوع بريح الجنة ... »

وإني لماض في ترداد ما أذكره ، أهمهم تارة ، وأبين مرة ، وأخفي أخرى ، وأغمض عيني تارة ، وأحدّق في صاحبي طوراً ، حتى رأيته قد فتح عينيه وصحا ؛ وإذا بالبسمة ترفّ على ثغره الذابل ، وبالرضى يشيع في وجهه الجاهم ، وبالهدوء يسري في جسمه النحيل ، وإذا به يقول بنبرة حنون : ما أبرع رقيتك ! أخبرني بربّك ما ذا قرأت لي ؟ وأي رقية هذي ؟ كان قلبي خافقاً فهدأ ، وكان جسمي مضطرباً فسكن ، وكان عقلي ساهماً فثاب . ألم أقل إنك صالح وفيك صلاح ؟ علّمنيها أرقِ بها نفسي ! ...

وانفجرت ضاحكا ضحكاً يدوّي ، وحرت فما أدري ما أقول . فنظر إلى دَهشاً وسألني : ما ذا يضحكك ؟ ولم لا تضنّ عليّ بها ؟ ...

قلتُ هذي رقية لا يعلم سرها أحد ، ولا يرقى بها أحد ، ولا أعلمها أحداً !

وأخذتُ أعتذر ، وأخذ يُلحّ ، وأنا أضحك في نفسي ، وأضحك منه . فلما رأيته قد ضاق صدره قلت : اكتب رقيتي :

« هذا ربيعكما يا فتاتي الفاتنة ، ويا طفلتي ... »

فحدّق بي وقال : « فتاتك وطفلتك ! ما ذا أصابك ؟ لكأني أنا المعافى وأنتَ المريض ، أبهذا رقيتني ؟ »

قلتُ : « نعم ! ألححتَ عليّ فلم أجد ما أرقيك به غير رقية من رُقى (الزيات) جرت على لساني ... »

فضحك ضحكا متواصلاً ، ونهض من فراشه واثباً ، وأخذ يقول : « ارقني ... فما أحبّ هذه الرقية إليّ . إن فيها سحراً ... وإن من البيان لسحراً ! »

وكانت رقيتي مبدأ شفائه ، فلله الله أن يُمنّ عليه بالصحة والعافية ... ببركات (الزيات) !

(دمشق) « الربيع »